4

حالة الاستخبارات السرية السوفياتية الخاصة

التطهير الكبير

نتائجه حتى سنة 1942

خبير اللاسلكي يتدخل

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

التطهير الكبير

ليس هناك من ترسيمة مسبقة للاستخبارات السرية، لذلك تختلف أبنيتها وطرقها وأعمالها من دولة لأخرى، وتتعين قبل كل شيء بالأشخاص الذين يقودونها، وبطباعهم، وقدرتهم على العمل. وتسهم الأيديولوجية والسياسة إسهاما كبيراً في هذا الاختلاف، وكذلك يكون إسهام نمط الوجود والسلوك التقليدي للشعب المعني. لذلك نجد القواعد الأساسية لنشاط أجهزة الاستخبارات السري تتعين بنمط كل منها، فهي لدى الصينيين غيرها لدى الروس، وعند الألمان أو الأنجلوساكسون أو الفرنسيين مختلفة عنها لدى الصينيين والروس. باختصار، يفصح الطابع القومي عن نفسه في العمل الاستخباري أيضاً، وقد سبق أن رأينا أن الأمم الغربية، وخاصة منها الإنجليز والألمان، تعطي قيمة خاصة للنهج العلمي، بينما يعتمد الفرنسيون عموما على العمل المنهجي. ويميل الروس إلى تصعيد العمل السري، ويقومون بذلك في كل مكان. على من يدوّن التاريخ أن يراعي هذه الميول، مثلما تراعيها أجهزة الاستخبارات، عندما تتلمس بعضها البعض بصورة متبادلة. وكما سبق القول، كان النزوع إلى معرفة العدو المحتمل في الزمن الذي أترسم خطاه هنا هو قوة شعبة «الجيوش الأجنبية» في القيادة العليا للجيش الألماني المميزة، وقوة البريطانيين، الذين لعبوا منذ سنة 1942 دورا قياديا في هذا المجال بالنسبة للحلفاء الغربيين، تحدد بالاتجاه المؤسس علميا ومنطقيا

ونفسيا، الذي اعتمدته أجهزة استخباراتها العسكرية، وأحرزت به نجاحات كبيرة في النصف الثاني من الحرب.

اختلفت الأمور، وكانت أكثر تعقيدا لدى السوفيات، كما يخبرنا قبل كل شيء المنشقون عنهم والفارون منهم. إنهم لم يكونوا فقط أساتذة في التمويه والسرية الشاملتين، وهو ما تنجح به الدكتاتوريات دون غيرها، بل كان لهم ميل تقليدي إلى تكوين عصب سرية وإلى العمل تحت الأرض بوجه عام. وهم متنكرون أفذاذ، يحبون الظهور بوجهين ويستمدون مجمل إحساسهم بالحياة من أدوار مزدوجة يلعبونها، يوجد في «شياطين» دوستويفسكي إشارات كثيرة إليها. في هذه السمة، يوجد تشابه قوي بين الروس واليهود، الذين احتلوا موقعا خاصا آنذاك في استخبارات موسكو، لكن الأمر تغير اليوم. ربما كان نزوع الروس إلى العمل السري يرجع إلى عصر التتار، الذي اضطهدهم طوال قرون، ثم إلى حكم القياصرة المطلق، الذي افرط في فرض الرقابة الأمنية: في الداخل على يد الشرطة السرية، وفي الخارج بواسطة الاستخبارات السرية، التي أنفقت مبالغ طائلة لهذا الغرض. كانت الجاسوسية الروسية ناجحة قبل سنة 1914، نذكر هنا بخيانة ريدل، العقيد في هيئة أركان صاحب الجلالة الملك والقيصر. لكن الاستخبارات كسبت الحرب العالمية الأولى بقدر ما حالت الأورخانا دون قيام ثورة تشرين أول/أكتوبر سنة 1917. نؤكد على هذه الملاحظة، لكونها تبين بصورة نموذجية حدود إنجازات أجهزة الاستخبارات جميعها، التي تسهم، من دون شك، في الانتصار أو الهزيمة، لكن ما يحسم الحرب هو عوامل أخرى يجب أن تتوفر على أعلى المستويات، هي قبل كل شيء الاستراتيجية السياسية ثم العسكرية للقيادة الأعلى أو للحركات الثورية.

إلى ذلك، لكل جهاز استخبارات تاريخه الخاص، ومصيره، وذراه

ومنخفضاته. وله أيضاً ضحاياه في كل مكان، فهو يتعامل مع الأسرار السياسية ويمكن تاليا أن يقع في طاحونة صراعات داخلية تطحن قادته الرئيسيين، خاصة في النظم الشمولية. هذا كان، على سبيل المثال، مصير الأميرال كاناريس وعدد من معاونيه في شعبة المكافحة الألمانية. لكن ما حدث في ألمانيا يبقى مجرد حالات خاصة، إذا ما قورن بما حدث في الشعبة الرابعة من رئاسة أركان الجيش الأحمر[1]، التي تعرضت لعمليات تطهير قام بها ستالين سنة 1937/ 1938، أصابتها في الصميم، وأدت إلى تغيير قيادتها وتنظيمها وتركيبها الشخصي، وجعلتها تفشل في غرب أوروبا ووسطها من سنة 1941 إلى 1943، حين وجب عليها تحمل هزائم ثقيلة، ولم تنجح في استعادة قواها من جديد إلا مع عملية «القلعة» في صيف سنة 1943.

هذا التدهور، الذي ما لبث أن أعقبه صعود جديد، يرتبط ارتباطا وثيقا إلى أبعد حد بعمليات التطهير، التي قام بها ستالين، وقلبت الجيش الأحمر، وخاصة دوائره القيادية واستخباراته، رأسا على عقب، بما صاحبها من ظواهر رهيبة. ذلك أن حكم الرعب، الذي أطلقه ستالين سنة 1937/ 1938 من عقاله بالتطهير، هز الاتحاد السوفياتي من أقصاه إلى أدناه. وكان له، كما يقول ليونارد شابيرو[2]، هدف إرهابي صريح في مرحلته الأولى، هو سحق جمهور الشيوعيين القدماء، الذين كانوا يتخذون موقفاً نقدياً معارضاً من ستالين، واستبدالهم بستالينيين يتلقون الأوامر وينصاعون لها من دون اعتراض أو نقاش. بينما يصعب تفسير المرحلة الثانية، لأنها انصبت بالدرجة الأولى على الجيش الأحمر. فلماذا؟.

لم يكن هناك، في اعتقادي، أي سبب للتشكيك بولاء الجيش، الذي

(1) أنظر: هاينس هونه: كلمة التعارف مدير. فرانكفورت 1972، ص 28.

(2) ليونارد شابيرو: التطهير الكبير، في: الجيش الأحمر، جمعه وأنجزه الكابتن ليدل هارت، بون، ص 71/ 79.

انقض ستالين عليه بمكر ووحشية. يقول بالوتشي هورفاث، الخبير في الشؤون السوفياتية في دراسته عن خروتشوف[1]: «عمل ستالين ومعاونوه بقدر كبير من السرية. وقد اشترك بعض الكوادر القياديين قبل يوم من اعتقالهم، بل وحتى يوم اعتقالهم، في لقاءات علنية مهمة، فوقف المارشال توخاتشيفسكي (وزير دفاع روسيا الأشهر قبل الحرب العالمية الثانية) مثلا أثناء عرض أيار/مايو سنة 1937 إلى جانب ستالين مباشرة على ضريح لينين. بعد أيام ألقي القبض عليه، ثم عرف الناس يوم 12 حزيران/يونيو أنه أعدم. لقد كان ستالين يصدر أوامر الاعتقال في آخر دقيقة». حسب شابيرو وتقارير أخرى ذات صدقية، سقط الجيش الأحمر ضحية التطهير: الذي قتل ثلاثة من خمسة مارشالات، على رأسهم مارشال توخاتشيفسكي، وثلاثة عشر من خمسة عشر آمرا للجيش، و57 من 85 جنرال قائد، و 110 من 195 قائد لواء، و220 من 406 قائد فوج، والأحد عشر مفوضا حربيا جميعهم، وأخيراً 75 من 80 عضوا في اللجنة العسكرية العليا، كانوا في الخدمة خلال شهر أيار/مايو من سنة 1937. هذا يعني أنه تم تصفية 90٪ من الجنرالات، و80٪ من العقداء إبان ذلك العدوان الرهيب على البنية القيادية للجيش الأحمر[41]، الذي أباد قدماء مقاتلي الحرب الأهلية بالقدر نفسه من انعدام الرحمة، الذي تمت به تصفية آخر الضباط القادة، ممن ترجع أصولهم إلى الجيش القيصري. قدم الجنرال كوسترينج، ملحق ألمانيا العسكري لدى موسكو في تلك السنوات، يوم 25/12/1938 تقريراً إلى رئيس المقر العام الرابع في أركان الجيش العامة، فون تيبيلزكيرش، حول عمليات التطهير يقول[2]: «في حزيران/يونيو من سنة 1937 فرقعت الطلقات ضد أكثر قادة الجيش شهرة ـ

(1) بالوتشي هورفاث: خروتشوف، فرانكفورت على الماين، ص 117.

(2) كوسترينج، ص 188.

فأصغى العالم. كم ضابطا اختفى قبل ذلك، أو استبدل سلاحه بعصافير الدوري في السهوب والغابات، هذا ما نعرفه الآن شيئاً فشيئاً، من خلال التسريبات حول التعيينات الجديدة ؛ هناك جيوش بدلت قادتها مرات كثيرة خلال بضعة أشهر، وليس تعيين مقدمين كقادة أفواج وملازمين كقادة كتائب غير واقعة تحكي بطلاقة قصة ما يحدث».

ماذا أراد ستالين بالإرهاب؟. من الصعب على المعايير العقلانية لفكر عادي فك أسرار ذلك الإرهاب. لكنه من الواضح أن المعايير الثورية الروسية من طبيعة مختلفة، وأن العمليات الدموية كانت تدابير وقائية ضد محاولات انقلابية محتملة، جعلت الخوف يدفع بالعسكريين الذين نجوا إلى إبداء طاعة غير مشروطة للدكتاتور، ورسخت الميل إلى الخضوع، الذي ينزع إليه الشعب السلافي بطبيعته. إلى هذا، كسب ستالين بهذه الطريقة الوحشية جيشا متجانسا ستاليني الهوى، رأى قادته، الذين رقاهم وميزهم تعسفيا، في أنفسهم صنائع له. تصرف هتلر بطريقة مشابهة، لكنها أقل دموية وإرهابا، وإن لم تكن أقل انفلاتا، كلما كانت الأمور تتطلب ذلك. يكفي أن نفكر بما فعله بالعماد فون فريتش. لقد أراد للجيش أن يسير من أعلاه إلى أدناه كالأعمى وراء الدكتاتور، وهو أمر بقي حلما رغبيا في ألمانيا، لكنه أوشك أن يتحقق في روسيا، وإن على حساب الهزائم الشنيعة لسنتي الحرب 1941 و1942، قبل أن يقود «الرجل الفولاذي» الجيش الأحمر إلى النصر الساحق على القوات المسلحة الألمانية.

هل يمكن عزو سقوط توخاتشيفسكي وأنصاره إلى مؤامرة حبكتها الشرطة السرية الألمانية؟. يقول الجنرال كوسترينج في مذكراته[1] إنه: «عرف من كتابات نشرت بعد الحرب أن موظف الشرطة السرية الألمانية هايدريش -

(1) كوسترينج، ص 99.

رئيس مكتب أمن الرايش الرئيس -، الذي ذاع صيته في مسائل لا تشرفه، ربما يكون تسبب في «التطهيرات»، من خلال رسائل مزورة «تبادلها» ضباط قادة ألمان وسوفيات، أوصلها هو بواسطة بينيش (رئيس تشيكوسوفاكيا آنذاك ـ المعرب) إلى ستالين. إذا كانت هذه المعلومة صحيحة، يكون ثمة مع ذلك أمر غير قابل للفهم، هو أن هذه «الفعلة» أطلقت حملة «تطهير» نتج عنها تدابير هائلة، لم تشمل فقط الساسة الأكثر شهرة والضباط السامين، بل طالت كذلك مئات آلاف كوادر الحزب في المدينة والريف، وسائر الفئات الاجتماعية، وعمالا وفلاحين... وعلى كل حال، فقد علمت مؤخرا أن هايدريش طلب من كاناريس تزويده بنسخ أصلية من رسائل تبادلتها شخصيات ألمانية وروسية. فهل تسمح الكتابات حول هذه الأحداث بالقول: إن هايدريش حاول بأمر من هتلر تسليم هيئة ضباط الجيش الأحمر القيادية إلى السكين، لكن محاولته تمت بوسائل غير ناجعة، بما أن ستالين كان سيسدد ضربته في جميع الأحوال، ومن دون مساعدة الألمان»[42].

أصيبت الاستخبارات العسكرية السوفياتية، التي سميت لاحقا (ج. ر. أو) في الصميم. تقدم الكتابات المتخصصة بإصداراتها المختلفة القائمة التالية بمن تمت تصفيتهم، التي جمعها هاينس هونه ونشرها في تقريره الموسوم «كلمة التعارف مدير»[1]:

رئيس (ج. ر. أو) جنرال يان بيرسين.

خليفته س.ب. اوريتسكي، الذي شارك في سهرة لدى كوسترينج في شباط/ فبراير من سنة 1936، عرض خلالها فيلما عن رحلة قام بها حول العالم[2].

(1) مرجع سابق، ص 60.

(2) كوسترينج، ص 166.

الملحق العسكري في لندن، فيتوف بوتنا.
قادة المقرات الغربية دون أي استثناء.
إينياز رايس، رئيس الاستخبارات العسكرية في غرب أوروبا، الذي قتل في سويسرا.
منظما اللجان أوسيب بياتنيتسكي ونائبه ميروف أبراموف، والرئيس الأعلى لشعبة العلاقات الدولية في الكومنترن في الغرب، الذي كان مكلفا بالاتصال مع عملاء الاستخبارات وتأمين أوراق مزورة لهم.

بالمقابل، واجه الإرهاب الستاليني بعض الأعطال، كما يحدث بصورة دائمة على وجه التقريب في مثل هذه الحالات: فقد فر رئيس مقر أوروبا الغربية الجنرال فالتر كريفيتسكي إلى الولايات المتحدة، وتبعه رئيس الاستخبارات السرية الجنرال أورلوف، فعرف الأميركيون، وأجهزة استخبارات أخرى متعطشة إلى المعرفة، الكثير مما أرادوا معرفته، من مصدر ثقة. لا بد من الموافقة على حكم هاينس هونه، عندما يقول عن التطهيرات الستالينية: «تحطمت منظمة أوروبا التابعة للاستخبارات السوفياتية، وسجنت نخبة جواسيس روسيا في أقبية موت الشرطة السرية». لا مراء في أن الخسارة الفادحة، التي نزلت بالاستخبارات العسكرية، والتي لا تعوض، كانت تصفية رئيسها يان بيرسين، الرجل الذي استخدم الكومنترن في بنائها، ونشر بواسطته شبكة جاسوسية محكمة التنظيم فوق أوروبا بأسرها، دافعا بقادة الأحزاب الشيوعية في غرب أوروبا خاصة إلى تقديم معلومات من كل نوع إليه، وإلى تزويده بعملاء وجواسيس رخيصي الأجر.

والحال، كانت الاستخبارات العسكرية السوفياتية حتى سنة 1936 أفضل جهاز استخبارات دولي وصولاً إلى المعلومات، بما أنه لم يكن لدى أي جهاز غربي عدد مماثل من العملاء، علما بأن هذه القوة هي التي أقلقت

ستالين، لا سيما وأن الجهاز لم يسمح لأحد بالدخول إلى أسراره، وكان قد تحول إلى نوع من دولة داخل الدولة. من هنا بدا تحطيمه وكأنه تدبير وقائي، وغدت تصفية قادته لمصلحة قادة تابعين، مسألة ضرورية في ظل عدم الثقة الذي ميز ستالين، حيث لم تشفع لأحد إنجازاته، ولم توجد «ظروف مخففة» أو مراعاة. هذا ما كانته مأساة يان بيرسين الشخصية، فيما وراء أي أيديولوجية سياسية.

من كان هذا الرجل؟. لقد وضع حجر الأساس لاستخبارات الجيش الأحمر، وينتمي شخصه والطابع المميز لتدابيره إلى سياق هذا الكتاب[43].

بنى يان بيرسين الاستخبارات العسكرية وقادها إلى نجاحات خارقة. لقد كانت خليقته، التي وظف نصف عمره في صنعها. كما سبق القول، لم يكن هناك حتى بداية الثلاثينيات من القرن الماضي أي جهاز استخبارات عسكرية دولي يمتلك معلومات أفضل أو أغنى من الشعبة الرابعة في الأركان العامة للجيش الأحمر في موسكو. ارتبط هذا بقيام الشيوعي القديم بيرسين باستعمال الكومنترن كمنظمة رديفة للجاسوسية السوفياتية، حتى في ميدان العلاقات العسكرية. لذلك، كرس جونتر نولاو في دراسته الرئيسة «الأممية» فصلا خاصا لموضوع «الكومنترن والاستخبارات السوفياتية»[1]. بهذا التدامج، الذي اعتبره بيرستن من طبيعة الأشياء، كان أمراً ذا دلالة أن لا تنشأ في ألمانيا احتكاكات داخل الحزب الشيوعي، وأن يشهد الحزب الشيوعي الفرنسي، بالمقابل، صراعات داخلية جدية. وإننا لندين لبرسين بالوصف الذي تقدمه الأدبيات التاريخية للغرب، حول واحد من هذه الصراعات.

لم يكن بيرسين يظهر نحو الخارج بصفته رئيس ومدير الاستخبارات

(1) جونتر نولاو: الأممية، كولن، 1959، ص 142-146.

العسكرية السوفياتية. حتى إن الجنرال كوسترينج، الملحق العسكري الألماني في موسكو، المولود في روسيا والذي يتقن الروسية كأحد أبنائها، لا يذكره ولو مرة واحدة في مذكراته أو تقاريره الرسمية الخاصة. لقد تحول الرفيق بيرسين بسرية تامة إلى القائد وأخيراً إلى الجنرال، الذي مثل المرجعية الاستخبارية للجهاز العسكري السوفياتي في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، وقدم الكومنترن الألماني له جميع أنواع العون السري الذي طلبه، ولم يوجد في غير الحزب الشيوعي الفرنسي تيار رفض التعاون معه، وهو ما أدى إلى استدعاء هنري باربي، قائد مكتبه السياسي النافذ والناطق باسمه، إلى موسكو، لتسوية هذه التباينات في وجهات النظر. لكن مثول باربي بين يدي بيانيتسكي ومانويلسكي بقي بلا نتيجة، فكان لا بد من أخذه إلى الجنرال بيرسين. يصف باربي هذا اللقاء قائلا:[1] «في صبيحة اليوم التالي اصطحبني ضباط الجيش الأحمر إلى فندق لوكس. لقد اخترقنا موسكو بالسيارة، إلى أن بلغنا أخيراً بناء ضخما يقع على ميدان كروبوتكين، لا يحمل أي لوحة أو علامة تشير إلى الجهة التي تعمل فيه. ذلك كان مركز الاستخبارات العسكرية السوفياتية ومقرها الرئيس. اقتادني مرافقي إلى قاعة كبيرة، تزين جدرانها خرائط عملاقة لأوروبا وآسيا، وقف وراء مكتب في وسطها رجل في الخمسين وقد ارتدى بذة عسكرية زينها وساما الراية الحمراء على الليتيفكا، يدل مظهره على قوة مفرطة، ويبلغ طوله نحو 1،75 متر، وقد حلق شعر رأسه، تفيض من عينيه الزرقاوين نظرة نفاذة مفعمة بالحيوية. لقد وجدت نفسي في مواجهة الجنرال بيرسين، رئيس المخابرات العسكرية في الجيش الأحمر، الذي يتحدث الفرنسية بطلاقة، الذي كان متوترا وعصبيا بعض الشيء. حياني بيرسين بحرارة، وهز يدي وطلب شايا

(1) استشهاد مقتبس من هاينس هونه، ص 28، و نولاو، ص 143.

ومعجنات. ثم بدأ محاضرة طويلة حول أهمية العمل من أجل الأخبار والمعلومات، التي تكفل الدفاع عن الوطن السوفياتي. وجعلني أفهم أنه يعرف موقف قادة الشيوعيين الفرنسيين من استخدام أعضاء الحزب في العمل مع الاستخبارات السوفياتية، واعترف أن هذا يمكن أن يسبب لنا حرجا، لكنه ليس في وضع يستطيع معه الاستغناء عنه». لم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد أزاح الجنرال اعتراضات وتحفظات قادة المكتب السياسي الفرنسي جانبا، وقدم لهم عرضا لا لبس فيه، يطلب منهم الدخول في علاقة وثيقة مع الشعبة الرابعة في الجيش الأحمر، والقيام بعمل استخباري لمصلحتها. كان باربي كمن تلقى ضربة على أم رأسه، فأفهم محدثه أن الامتناع عن ممارسة التجسس هو من تقاليد الحركة العمالية الفرنسية، التي تضع مصالح وطنها الخاص فوق مصالح «الوطن الاشتراكي»، أي الاتحاد السوفياتي. ثم ختم حديثة من جديد بنداء وجهه إلى الجنرال بيرسين، يناشده التخلي عن تجنيد جواسيس من الحزب الشيوعي الفرنسي. عندئذ، حدثت مجادلة حيوية بين الفرنسي وجنرال الاستخبارات السوفياتي، «الذي أوحى لي وقد احمر وجهه غضبا، أنني ربما كنت لا أود فهم أهمية العمل، لكن آخرين سيدركونها... وعند الوداع، طلب إلي التفكير مرة أخرى بالأمر». يصف هذا النص الجنرال سنة 1931. لكن الرجل مات بعد ست سنوات. وكان قد عمل خلال الحرب الأهلية الاسبانية مستشارا أول لحكومة مدريد، قبل أن تطلق عليه النار ويقتل سنة 1937[44].

لقي خلف بيرسين، الجنرال سميون بيتروفيتش أوريتسكي، ومساعد بيرسين الكساندر كورين، المصير ذاته في موسكو. ذلك أدى إلى تصفية الاستخبارات العسكرية القديمة، وأصاب الجديدة بالشلل لسنوات كثيرة. كان للضربة، التي مزقت الجيش الأحمر، نتائج سياسية دولية كبيرة وعميقة، وساعد تطهير شعبة أركانها العامة الرابعة هتلر، بصورة مباشرة أو غير

مباشرة، على إحراز نجاحاته الخارجية الكبيرة في السنوات التالية، بدءا من ميونيخ سنة 1938. فقد أقصي الجيش الأحمر أول الأمر كأحد عناصر القوة الأوروبية، حتى إن القضاء على هيئة ضباطه العليا جعل فرنسا تقلع عن اعتباره عنصرا من واجب سياستها الخارجية أخذه بالحسبان. هنا، كانت لا تزال حية في الذاكرة محادثات المارشال توخاتيفسكي مع الأركان العامة الفرنسية، وقد دارت آنذاك، في سنة 1936، حول معاهدة التعاون الفرنسي / السوفياتي. بدوره، كان الملحق العسكري السوفياتي في لندن، الجنرال بوتنا، قد دعي إلى المشاركة في هذه المحادثات، لكن الرجلين أعدما في الفترة السابقة، بينما حل ضعف شديد بالجيش الأحمر. هكذا، تشككت فرنسا في وصول مساعدة سوفياتية إليها، فكان تشككها احد الأسباب التي جعلت رئيس وزرائها دالاديه يقبل الذهاب إلى ميونيخ في أيلول/ سبتمبر من سنة 1938.

كان للتطهير، الذي قام به ستالين سنة 1937/ 1938 نتائج أخرى بالنسبة إلى الاستخبارات العسكرية السوفياتية. فقد رفض كثير من منتسبيها إطاعة أوامر موسكو بالذهاب إليها «لتقديم تقرير» هناك. صحيح أنه كان هناك من استسلم كالأعمى مثل رئيس ب. ب بورده، قائد جاسوسية الاستخبارات العسكرية السوفياتية في اسكاندينافيا (بورده: «أنا ذاهب إلى الموت، لكنه لا خيار آخر لدي»)، إلا أن هناك، بالمقابل، من طلب اللجوء في الغرب، ودفع ثمن ذلك: كشف ما لديه من معلومات. لقد هتك هؤلاء حجاب السرية الشاملة، فعرفت أجهزة استخبارات الغرب الكثير حول طرق وأشخاص ومعلومات، كانت معرفتها تتطلب تجنيد مئات العملاء، إن قيض لهم الحصول عليها أصلا. هكذا خدمت التطهيرات الكبرى الغرب، وأعتقد أن هذا السبب هو الذي دفع الاستخبارات العسكرية السوفياتية إلى الانسحاب من ألمانيا.

في هذا السياق، يلفت النظر بصورة خاصة مصير الجنرال كريفتسكي[1]، الذي جاء بالأصل من الشعبة الرابعة في أركان الجيش الأحمر العامة، واعتبر تلميذا فذا لبرسين. لقد كان في مطلع العشرينيات من القرن الماضي ملازما ثانيا وكان احد كوادر الضباط السوفيات، الذين أرسلوا إلى ألمانيا، للإعداد لاستيلاء الشيوعيين على الحكم، أي للحرب الأهلية. في ذلك الوقت، كان هناك منظمات ثلاث تنشط تحت الأرض هي: استخبارات الحزب الشيوعي بقيادة الشعبة الرابعة، ومنظمة تعد كوادر للجيش الأحمر الألماني المقبل، وأخيراً مؤسسة مهمتها اختراق جيش الرايش والشرطة بطريقة منهجية ومنظمة، بهدف تحطيم معنوياتها أو أقله «لإثارة الاضطراب في صفوفها». من المعروف أن العملية فشلت، لأن كتلة العمال الكبرى رفضت تأييد التجربة الثورية. لكن الملازم السابق كريفيتسكي اكتسب «خبرته الأولى» خلالها، ثم عادت إنجازاته الاستخبارية عليه برتبة جنرال، قاد مكتب الاستخبارات السوفياتية في الغرب. هذا الرجل اختار الحرية، حين تلقى الأمر بالعودة من باريس إلى موسكو، ونشر مذكراته سنة 1940، ثم وجد، بعد فترة قصيرة، ميتا في غرفة فندق في واشنطن، وقيل إنه انتحر. ثمة رجل استخبارات آخر خدم موسكو في الغرب هو الجنرال ألكساندر أورلوف، العميل الذي كان يقود مكتبها في إسبانيا، وفر بدوره إلى الغرب فنجا من مطاردات زملائه السابقين، وكتب في الفترة المنصرمة كتبا مهمة عن ستالين والاستخبارات العسكرية السوفياتية. أما قائد مكتب الاستخبارات السوفياتية السابق في تركيا، ج.س.آجرابوف، الذي نشر سنة 1930 في برلين كتابا عن الاستخبارات السوفياتية، فقد توارى عن الأنظار في بلجيكا، إلى أن تم العثور عليه واختطف إلى موسكو، حيث أعدم.

(1) بوخهايت، جيرت: القوة المغفلة. فرانكفورت 1969، ص 149.

الفصل الثاني

النتائج حتى 1942

يقدم دالين كشف الحساب الآتي في كتابه «الجاسوسية السوفياتية»: «عندما خمدت العاصفة سنة 1938، وحل بيريا محل يشوف، كان ضعف شديد قد أصاب روسيا، الواقعة بين دولتين قويتين هما ألمانيا واليابان. لقد كانت استخباراتها محطمة، وكانت تفتقر إلى احتياطي دماء طازجة يمكن حقنها به»[1]. وكان ثمة ثقب كبير في جسم سفينة الاستخبارات السوفياتية عشية الحرب العالمية الثانية، جعلها عاجزة عن المناورة لفترة طويلة. بينما تلقى الجيش الأحمر بدوره من الضربات ما جعله عديم الوزن خلال أزمة السوديت سنة 1938، وأجبر السوفيات على الاكتفاء بدور المتفرج عند توقيع اتفاقية ميونيخ. لكنه أمكن منذ سنة 1938 التخلص شيئاً فشيئاً من عقابيل التطهير الستاليني للجيش، الذي فشل مع ذلك في حرب الشتاء ضد فنلندا سنة 1939/ 1940. في حين كانت أمور الاستخبارات خلاف ذلك، حيث ساد حتى في الأعوام الأولى من الحرب الألمانية / السوفياتية نقص في الخبراء، الذين يمتلكون المعارف الرئيسة الضرورية عن الجيش الألماني، وافتقر الجيل الذي تم إعداده بسرعة وسطحية إلى الخبرة، التي تمكنه من التفريق بين «التبن والقمح»، وبين المعلومة والهذر. في هذا الوضع، وجدت الاستخبارات نفسها مضطرة للاعتماد بصورة رئيسة على أعضاء الكومنترن في

(1) دالين: مرجع سابق، ص 65.

الخارج، الذين نجوا من التطهير، وافتقروا إلى معارف عسكرية. غير أن المشكلة الرئيسة كانت افتقار المركز إلى رجال ذوي خبرة عملية، مما يفسر النكسات الثقيلة التي عرفتها حتى سنة 1942 شبكاته في الغرب، وتتلخص في أنه:

1 ـ لم يتخذ أي تدابير لتأمين أجهزة إرسال قصيرة الموجة في برلين، مست الحاجة إليها عند نشوب الحرب. كما كان هناك افتقار شديد إلى عمال لاسلكي مؤهلين[45].

2 ـ جند عملاء غير ملائمين وغير مدربين، أهمل تأهيلهم، ولم يوفر لهم قادة موصوفين، فكانت النتجية أن انتهكت مجموعة شولتسه/ بويزن البرلينية قواعد العمل السري انتهاكا فاضحا ويستحق العقاب[46]، ودفعت دزينة من الوجوه الجانبية حياتها ثمنا له.

3 ـ ارتكب أخطاء غير قابلة للتصحيح، منها مثلا ذكر ثلاثة عناوين برلينية صحيحة في رسالة لاسلكية، أدت إلى تسليم مجموعة برلين الرئيسة شولتسه / بويزن، وأرفيد هارناك، وآدام كوخهوف إلى الشرطة السرية الألمانية .؛علما بأن اعتقال شولتسه / بويزن أسقط الخبير العسكري الأكثر أهمية لدى السوفيات في يد الألمان.

4 ـ افتقر المقر السويسري بقيادة ساندور رادو، الذي تأسس بالأصل ليكون شبكة احتياطية وحسب، إلى مدير مؤهل من الناحية العسكرية[47]، وهذا ما برزت نتائجه، عندما سقطت جميع الشبكات الأخرى على وجه التقريب في الغرب. لكن الوضع تغير في نهاية خريف سنة 1942[1]، عندما

(1) أنظر شرام: الخيانة في الحرب العالمية الثانية. الطبعة الثانية. دوسلدورف 1969، الفصل الرابع: «فيرتر ـ شخص أم ظاهرة ؟» تنامت أبحاثنا منذ ذلك التاريخ. وهناك شك قوي =

تم تجنيد خبير عسكري للعمل مع روسلر وظهر «فيرتر». صحيح أن بعض قادة العملاء المؤهلين عسكريا أرسلوا سنة 1939 إلى الغرب، بيد انه كان من الصعب التأكد من طبائعهم، بسبب تقدمهم الوظيفي السريع. هكذا سقط رجال مهمون كـ«بوتي شيف» وكنت وفيكتور سوكولوف فريسة إغراءات «الحياة الحلوة». قبل شرح أطروحاتنا، وخاصة الرابعة منها، ثمة شيء يقال. بعد التطهير، تم تعيين قادة مقرات جدد في الغرب، كانوا، كما سبق القول، أعضاء منذ سنوات طويلة في الكومنترن، ولديهم خبرات في العمل السري ووظائف ممتازة يتخفون وراءها. هكذا كان مثلا ألكساندر رادو مدير مطبعة جيوبرس، وليوبولد تريبر مدير شركة كبيرة للاستيراد والتصدير. لكن هؤلاء كانوا عاجزين تماماً عن القيام بالمهام، التي تطرحها الحرب، لأنهم كانوا غير محترفين عسكريا. هذا النقص كان واضحا قبل كل شيء لدى المقر السويسري، حيث تبين المواد التي تم تلقيها أو فك رموزها[1]، أنه تم بين 1941 وخريف 1942 إرسال برقيات كثيرة جداً إلى موسكو، لم تكن غير مجرد ثرثرة بلا معنى. على أن الوضع تحسن فيما بعد بصورة لافتة. كما تدل الأمثلة الآتية.

= في أن ضابط الاستخبارات التشيكية السابق العقيد كاريل سيدلاشيك (الياس سميسون) كان في خريف سنة 1942 مستشاراً لروسلر، القليل الخبرة عسكريا. حسب كتاب هانس رودولف كورتس: سويسرا كمركز أخبار، ص 23، سكن سيدلاشيك في سانت جالن لدى حميه هاوسمان، الذي كان على صلة مع لوسي - روسلر عبر د.فالنر. بعد الحرب، عين سيدلاشيك أول ملحق عسكري تشيكي لدى سويسرا. ويلفت النظر أن روسلر كان يعمل آنذاك أيضاً في خدمة استخبارات براغ.

(1) نسخ هذه النصوص في حوزة المؤلف.

6 أيلول/ سبتمبر 1941

إلى المدير

تقول أوساط ديبلوماسية صينية أن ألمانيا توافق على قيام فنلندا بعقد سلام خاص، بعد الاستيلاء على لينينجراد، لأن ذلك سيؤدي إلى تقصير الجبهة الألمانية، وتحرير قوات ألمانية، وتسهيل تموينها ونقلها.

دورا

التعليق: ذلك كان إشاعة هادفة نشرتها الاستخبارات، وتم تداولها في برلين آنذاك.

وفي اليوم ذاته:

إلى المدير

حسب قول ضابط ألماني رفيع مقره في بروتاني، تم سحب حتى عشر فرق من الغرب وإرسالها إلى الجبهة الشرقية.

دورا

(تحمل البرقية الرقم 207)

التعليق: لم تحدد البرقية الزمن الضروري لإرسال هذه الفرق إلى الشرق، وأي وحدات كبيرة أو تشكيلات جديدة يحتمل أن تحل محلها. بذلك كان من الصعب الإفادة من معلوماتها الغائمة.

يوم 6/ 8/ 1942 أبرق المدير في موسكو موبخا

إلى دورا

أصبت بالدهشة لأن «باكبو» لم يقدم بعد معطيات حول المكان الذي

يوجد فيه حاليا مقر قيادة هتلر

المدير

التعليق: كان مقر قيادة هتلر موجودا ذلك الوقت في فينيسسا في أوكرانيا. وهو أمر كان معروفا في الدوائر الداخلية للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية (ومنهم المؤلف). هذا يعني أن باكبو لم يتلق معلومات من هذه الدائرة.

وفي آب من سنة 1942 كان على المدير أن يبرق إلى دورا:

لا نستطيع الإيمان بصحة معلومات تايلور الأخيرة. عليكم حتما إيضاح مصدرها. أليس من المحتمل أن يكون في الأمر استفزاز؟. هل يضمن تايلور موثوقية مصدره؟. أقيموا دون إبطاء صلة مباشرة مع هذا المصدر[48].

(في موسكو كان يهب منذ بعض الوقت هواء آخر).

obeikandl.com

الفصل الثالث

خبير اللاسلكي يتدخل

ليس هناك من لا يمكن الاستغناء عنه، بمن في ذلك الجنرال بيرسين وهيئة أركان معاونيه القدماء الماكرة. ومع ذلك، كان لا بد من مرور سنوات، قبل أن تستعيد استخبارات الاتحاد السوفياتي العسكرية كامل قدرتها من جديد. وعند نشوب الحرب سنة 1941، كان جليا أن هذا لم يكن حالها بعد، وخاصة في مقراتها الغربية، وإن كان الوضع أفضل من ذلك في المركز الموسكوفي، الذي استعاد استقلاليته من جديد، بالنظر إلى اقتراب الحرب العالمية الجديدة.

وقد دعي إلى هذا المركز، بدءا من سنة 1938، عدد متعاظم من الضباط الشبان، ممن تربطهم بستالين علاقة شبيهة بتلك التي ربطت رفاقهم في الوظيفة بهتلر في ألمانيا، أعني علاقة الخضوع والانضواء والولاء. صحيح أنهم كانوا لا يجيدون بعد جميع أحابيل العمل الاستخباري، وخاصة منه قيادة العملاء، وأنهم ارتكبوا أخطاء ترتبت عليها نتائج وخيمة، لكنهم كانوا متعطشين إلى التعلم كمعظم الروس الشبان، واكتسبوا قدرا متزايدا من المعرفة حول القوات المسلحة الألمانية، تفصح عنه استفسارات المدير الموجهة إلى رادو. لقد بدأت الاستخبارات العسكرية تتدارك سنة 1942 ما كان قد فاتها.

ثمة سبب آخر خدم إعادة بناء الاستخبارات واستكمال قوامها: إنه

قدوم البديل وجيل موظفيها اللاحق من سلاح الإشارة بالدرجة الأولى، الذي كان يمتلك عددا كبيراً من المواهب التقنية، ويرأسه منذ سنة 1941 رجل تبين بعد حين أنه ضرب من «فيلجيبل» سوفياتي، ما لبث أن اكتسب نفوذا حاسما على مجمل سلاح الإشارة في الجيش الأحمر بوجه عام، وعلى الاستخبارات بشكل خاص، هو مارشال سلاح الإشارة اللاحق إيفان تيرنتييفيتش بيريسبكين.

وكان قائد أو رئيس الأركان قد أقام في هذه الأثناء وليمة للملحق العسكري السابق في برلين، الجنرال أورلوف، الذي يقول كوسترينج عنه في رسالة بعث بها من موسكو يوم 28 آذار/مارس سنة 1938: «أما بهاء الروس فكان أورلوفنا، وهو الآن قائد فرقة ورئيس شعبة المعلومات، شيء يشبه كاناريس عندنا، اصطحبه سيد البيت (السفير الأميركي. ملاحظة للمؤلف) إلى باب المنزل، حين غادر[1]. خلف العميد آ.ب .بانفيلوف من سلاح المدرعات، أورلوف في تشرين الأول/أكتوبر من سنة 1941، في أعقاب الفشل الجلي للاستخبارات السوفياتية. لكن الرئيس الجديد لم ينجح بدوره، فتم تعيين «مدير» جديد سنة 1942 هو العميد إيفان ايفانوفيتش إيلييتشوف، الذي كمنت قوته في جانبه السياسي، بدليل تعيينه بعد الحرب مفوضا أعلى وسفيرا سوفياتيا لدى فيينا. صمد المدير الجديد عاما واحدا في منصبه، قبل أن يظهر على رأس الاستخبارات العميد فيودور فيودوروفيتش كوزنيتسوف، القادم من الإدارة السياسية الرئيسة[2]، الذي بلغت الاستخبارات العسكرية للجيش الأحمر ذروة إنجازاتها تحت إدارته، وكان مسؤولا بهذا القدر أو

(1) كوسترينج: مرجع سابق، ص 198.

(2) نتابع هنا معطيات هانه، ص 63 وما يليها، ورسالته إلى جريدة فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج بتاريخ 15/ 8/ 1974 «بيريسيكين لم يكن رئيس الجاسوسية».

ذاك، عن تجفيف موارد مقر ساندور رادوس في سويسرا، وجعل محطات اللاسلكي التابعة لعملائه مورد معلوماتها السرية الرئيس[49]، بعد أن قدم سلاح الإشارة الوسائل التقنية والكادر المدرب، وتعاون تعاونا وثيقا مع الاستخبارات العسكرية، شأنها في ذلك شأن السلاح ذاته في القوات المسلحة الألمانية، الذي تعاون بدوره مع وكالة أنباء العدو في الجيش.

لم يعد التجسس بأنواعه المختلفة نقطة ثقل العمل الاستخباري الحديث، بعد أن انتقلت إلى اللاسلكي باستخداماته المتنوعة، إلى عملائه واستطلاعه، وغدت الحاجة ماسة إلى تنظيم أقوى للتخابر باللاسلكي. لنستمع إلى ما يقوله خبير عالي التأهيل في تقرير غير مطبوع حول هذه الناحية، هو العقيد راندیفیج، الذي كثيراً ما سنستشهد به في هذا الكتاب: «كانت أساليب اللاسلكي الروسية محكمة وسديدة. ومع أنها كانت بطيئة بعض الشيء بالنسبة إلى المفاهيم الغربية، فإنها كانت متكيفة مع ذكاء عامل اللاسلكي الفرد. وكان ممكنا التأكد بعد حين من أن الروس يعملون بمنظومات رموز تراسل بسيطة ومنهجية، تسمح بالتعرف السريع إلى الترابطات التكتيكية. كذلك كان الأمر مع المجموعات المركزية في كل رسالة، التي سهلت عمل استطلاعنا. و« لكن»: في 1/ 4/ 1942 حسَّن الروس أساليبهم تحسينا جذريا، زاد أمن اتصالاتهم البرقية، فتراجعت لفترة طويلة عوائد استطلاعنا. . .»[50].

ثم يلخص العقيد راندیفیج مؤكدا: «وعلى كل حال، فإن علينا الاعتراف بأن الإدارة العليا للاسلكي الجيش الروسي بذلت جهودا امتدت طوال الحرب لتطوير نظامه وترقيته، وإن كان تطبيقها عمليا تأخر بعض الوقت». هذا التحديث المستمر، يجب أن يسجل في رصيد إنجازات خبير اللاسلكي بيريسيبكين. صحيح أنه لم يكن «المدير»، كما افترض مؤرخو

العصر الألمان أول الأمر، لكن نفوذه تزايد باضطراد على الاستخبارات العسكرية، التي بدأت تستعيد اعتبارها منذ سنة 1939، حين غدت مسؤولة من جديد عن مكافحة التجسس، وكانت حتى ذلك الوقت من اختصاص شرطة أمن الدولة. تولت الاستخبارات العسكرية أيضاً استطلاع العدو في المناطق العسكرية القريبة من الحدود. وأقامت دورات تعليمية لشعبة اللاسلكي الخاصة في مدرسة البرق والراديو في موسكو. وأسست شعبة ترميز خاصة بها، تولى إدارتها خبير مجرب هو العقيد كرافتشنكو. لئن كان اللاسلكي السوفياتي لم يبلغ الذروة في هذا كله، وكانت القوات تتعامل بخفة مع أجهزة التخاطب اللاسلكي، فإنه عوض عن نواقصه بمزايا أخرى، منها التحسين المتواصل خلال الحرب لاستخدام اللاسلكي من أجل استطلاع العدو، الذي ترتب على جمع مختلف الخدمات وتنسيقها بواسطة الاستخبارات العسكرية، التي كان ستالين يصغي إلى رؤسائها، بعكس هتلر، الذي كان يضرب عرض الحائط بالمعلومات «من أول مصدر».

بوجه عام، علينا إعطاء بيرسيبكين الأهمية ذاتها التي نعطيها لفيللجيبل لدى الألمان. أرسى رئيس الإشارة الألمانية في السلام مستلزمات نجاح الاستطلاع الألماني للعدو، وسهر على تحسينه حتى النهاية الكارثية للحرب، التي كان قد تنبأ بها، لكنه لم يشهدها، إذ أعدم بطريقة مهينة بعد 20 تموز من سنة 1944[1]. مر بيرسيبكين بتجربة معاكسة، فقد دان بصعوده إلى «تطهيرات» ستالين العنيفة، ثم عايش إخفاقات جسيمة في مجال اللاسلكي بالذات، الذي كان مسؤولاً عنه كرجل استخبارات أعلى، قبل أن يقرر التقيد بنصيحة لينين «إفهم وتجاوز»، ويعمل على استغلال إمكانات هذا السلاح الاستطلاعي الأخرس بطريقة هجومية. ذلك جعل من بيرسيبكين الرئيس

(1) يوم 4/ 9/ 1944.

الذي انفرد دون جميع الرؤساء «العظام»، الذين يرد ذكرهم في هذا الكتاب، بتحقيق أعظم قدر من النجاح: فقد رقي إلى مارشال سلاح الإشارة ومنح أعلى الأوسمة الحربية، بينما صفي كاناريس وأوستر وفيللجيبل، وصرف الرئيس الناجح لشعبة «الجيوش الأجنبية شرق» جيهلن من الخدمة برتبة لواء، وكذلك السير كينيث سترونح، رئيس الشعبة الثانية الناجح والمجد لدى أيزنهاور، الذي حقق مفاجأة الغزو وتلقى لقب النبالة وهو برتبة لواء.

obeikandl.com